من روائع الأدب الانجليزى

عندما انفتح الباب

للكاتبة الانجليزية سارة جراند

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

لطالما التمعت فى الحياة بارقات لوامح ، وقعت لدينا حادثات خوارق ، دون أن نلقى إليها السمع أو نحد البصر . حادثات بارقات تضطرب فى قاموس الحياة الهادرة، وتتوارى فى رحبات الدنيا الصاخبة، وتضيع وسط العجيج واللجب ، حادثات غامضات ترف أمام الناس فى المدينة الزاخرة ، والمركبات الفارهة ، وفى السيارات العامة ، تتواثب على طوار القُطُر ، فى عربات تقف وتمُر ؛ تتراءى فى أعمال الناس صغيرة درجت عليها حياتهم رتيبة تافهة طوال الليل والنهار

وفى الحياة قصص أى قصص : قصص بَنَتْه شتى العواطف والخُلُق ونسجته مختلف المشاعر والأحاسيس : نبالة ونذالة وبطولة ، حب ومقت ورذيلة؛ وقصص يتوالى فيها تصاوير الأفراح وتهاويل المآسى والآلام

ولو كان بين يديك قصة تقتصر على بداءة فحسب ، فأى شوق يحدوك إلى معرفة النهاية ؛ وإن كانت نهاية فأى نصب تلقاه فى تصوير البداية ؟ وإنه لما يثير الغيظ أن يكون فى القصة البتراء من الروعة ما تقصر عنه القصة الكاملة ذات البداية المريحة والنهاية السارة المقنعة .

وقد لا تخلص من ضيق يسببه لك استطلاع أثارته قصة بتراء على حين تكون قد أنسيت من القصص الكاملة كماً كبيراً

فقد ركبت القطار فى طريق العوْد إلى مثواى من إحدى الضواحى ، وكان أنْ جلست فى ثوىٍّ به أشخاص ثلاثة : رجل أسود الشعر قسيم الوجه وسيمه يحوم حول الأربعين ، وزوجان فصلت بينهما السن فالرجل كما يبدو يكبر زوجه ، وكان يلوح أن نزاعاً حل بينهما قبل أن أُلج الثوى ، فقد كانت سحب الغضب والحدة تظلل وجه الزوجة ، بينما كان الرجل حزيناً مهموماً

وقد بادل الزوج جاره الغريب كلمات قلائل بلهجة المتعارفين من قبل حتى يسدل على ما حدث ستاراً . أما السيدة — فعلى النقيض — لم تحاول أن تخفى شعورها فقد استوت سامدة كأن على رأسها الطير ، مقنعة رأسها تحدق فى الظلام ، حتى إذا ما وقف القطار ومد لها زوجها ذراعه ، غادرا الثوى فأمسيت مع الثالث وحدى

وأنشأنا نرقب الزوجين إذ يسيران سوياً . وكان طبيعياً أن يستأنفا التشاحن قبل أن يسيرا بضع خطوات ، وكان رفيق السفر يواجهنى ، فلما أن اختفى الزوجان تلاقت أعيننا فى نظرة كلها تفاهم وإدراك ، وهز كتفيه هزة خفيفة ساخرة فرأيتنى أقول على رغم منى :

— كم كان بودى أن أحضهما النصح .. فتنهد الرجل وقال :

— آه ، وأنا أيضاً ، ولكن ليس من اليسير السهل أن يفعل المرء ذلك فى هذه الحال

— أحسبك توقن بأن الناس يعلمون من أمرهم أكثر مما يعلم الآخرون

— كلا ، فليس هذا من رأيى ، فالنظارة ترى أكثر مما يرى اللاعبون كما تعلمين ، ومع ذلك فمن العبث أن يحض المرء زوجين على خلاف وتنازع نصيحة خاصة إذا كان كلاهما صلب الدماغ خاطئ الرأى ، وحتى العاقل الرزين من الناس ذو القلب الطيب والمرى الشريف تراه يأتى أحياناً بأخطاء فاحشة شنيعة على إدراكه فداحة هذه الأخطاء وجسامتها . والآن هذا الرجل — كان هنا منذ لحظات ، كان يرقب زوجه ويحملها على السكوت ويلزمها الصمت ، أو على الأقل يريد أن يبسط عليها حمايته كما لو كانت تجهل كيف تسوس نفسها وتملك قياد أمرها . فى يقينى أنها ستحمل له الكره والسخط والشحناء وسيحملها — ولا ريب — على انتهاج سبيل يربأ بها أن تسلكها ، ويتحاشى أن تضرب فيها . أرانى عاجزاً عن أن أفهم لم يبيح الرجل لنفسه أن يتخذ من زوجه عبداً يطيعه ولا يعصى له أمراً ، فأنا أوثر أن أمنح المرأة حرية غير موكوسة إلا فى حالات خاصة

— ولكن غالباً ما يكون لهذه الحرية المطلقة عواقب وخيمة ، وكيف يميز المرء هذه الحال الخاصة ؟

— أوه ! لا صعوبة ألبتة فى ذلك . إن أخلاق النساء كتاب مفتوح فى سنهن الباكرة ، وفى وسع كل من يقرأ أن يقرأه . ومن رأيى أنه إذا انعدمت الثقة بين الزوجين فلا يجديهما الشجار شيئاً ، ولا تخلق الشحناء بينهما هذه الثقة المفقودة . غير أنى لا أجيز ترك الحبل على الغارب لفتاة صغيرة رعناء . إن ما تريده المرأة رفيقاً لا ولياً ، صديقاً لا قيماً ، وكثيراً ما يأتى العقلاء — كما أسلفت — فى حياتهم الزوجية بأخطاء جسيمة منكرة . لقد تزوجت بفتاة تصغرنى بسنوات عشر ولا أظن أن هذا الفرق فى العمرين جد كبير إذا كان بين الاثنين توافق فى الطبع وامتزاج فى الخلق ؛ غير أننا كنا على طرفى نقيض . إذ كنت أهيم بالحياة الهادئة الساجية المفعمة بالفنون والأدب ، وأمقت تزجية الوقت بالثرثرة فى الحفلات والولائم مقتاً كبيراً ، وكانت زوجى تضيق بكل ألوان الفن ، وليس ثمة شىء يدخل على نفسها أسباب المرح والسرور أكثر من وجودها بين جمع صاخب وحفل جياش . وقد أجمعت أمرى على أن أدعها وما تهوى فلا أسألها مرة البقاء معى فى البيت على أن تدعنى هى أيضاً وما أبغى فلا تطلب إلىّ مصاحبتها إلى حفلاتها ومآدبها . وبالرغم من ذلك الحب الكبير الذى يجمع بينى وبينها لم أستطع أن أدرك لماذا جهد كل منا فى العمل على توحيد أمزجتنا المختلفة وأخلاقنا المتباينة . إن الزواج لموفق ناجح إذا كان أساسه التجانس فى الأخلاق والتجاذب فى الطبع . وليت شعرى لِمَ يجلب الزوجان المختلفان فى المزاج المتناقضان فى الطبع على نفسهما الشقاء والبؤس بالسعى فى توحيد أخلاقهما ، وفى وسع كل منهما أن يتخذ سبيله التى يحب على

أن يرقب بعض الفرص السانحة فيسعدوينعم برفيقه؟ إننى موقن أن هذه هى السبيل الوحيدة المؤدية إلى السعادة فى الحياة الزوجية القائمة على أساس متباين الأركان من الأخلاق والطباع . ألا ترين منى أنهما يدعمان حياتهما بالتلاق من حين لحين يتناقلان الكلمات الحلوة ويتجاذبان الأحاديث المسولة

أقول قد تركت زوجتى تضرب فى طريقها كما اتخذت أنا أيضاً سبيلى . وقد أجدت هذه الطريقة وسيرت دفة حياتنا على خير ما نرجو . وكانت أحياناً تبدى رغبة أن أرافقها إلى الحفلات والولائم . كذلك كنت أحياناً ألح لها برغبتى أن تبقى معى فى البيت . وبذلك استطعنا قليلاً أن نوفق بين رغباتنا وأخلاقنا . ولكنى لا أستطيع الجزم بأن إنكار الذات على هذه الصورة قد صادف فى حياتنا نجاحاً كبيراً ...

وكان ثمة حفلة مقنعة أصرت على أن تذهب إليها . وأظن أنها لمحت برغبتها فى أن أرافقها ؛ ولكنى تجاهلت تلميحها ليقينى أنى سأضيق بالحفلة وضجيجها

وقد ذهبتْ إلى الكرنفال فى ثوب قشيب على هيئة أحجار الدومينو موشى بخطوط قرنفلية باهتة ، ومفوف بشرائط بيضاء ناصعة ، وأخذت معها « مروحة » من ريش النعام الأبيض الثمين . وتدلى من قناعها شرائط حريرية هفهافة غطت فمها الحمرى الدقيق . كانت رغبتها قوية فى الذهاب ؛ ولكن رغبتها ضعفت حينما رأت أنى لن أرافقها . غير أنها ذهبت لارتباطها بموعد مع أصدقاء لها . ولما أنبأتها أنى سأبقى بالبيت وعدت ألا تتغيب فى الحفل كثيراً وران علىّ السأم والملل عند ما ذهبت وتركتنى وحدى ، فأمسكت بكتاب وأشعلت سيجاراً ؛ ولكن تبلد ذهنى وعزب لبى حينما حاولت القراءة فنحّيتُ الكتاب جانباً ، واستويت فى جلستى أدخن وأسرّح الخيال المضطرب فى أجواء شتى

وبدأت أفكر : ترى ماذا تصنع زوجى فى الكرنفال الآن ؟ وهل قابلت أصدقاءها ؟ وجال بخاطرى أنها ربما لا تلتقى بهم . وقد يسبب لها ذلك شيئاً من الارتباك والحيرة . وإن مثل هذه الحفلات العامة لتجمع خلقاً كثيرين من شتى الطبقات والأجناس . وهناك بعض الحرية والإباحية لا سيما والوجوه ملثمة مقنعة . وزوجى حتى فى هذا الثوب — ثوب الدومينو — تبدو جميلة ساحرة . وقد يزعجها من لا أخلاق لهم من الذين يغشون هذه الحفلات كثيراً . وقد تكون الآن تراقص امرأً راغبة عنه زاهدة فيه . أترانى أصبت فى تركى إياها تذهب وحدها ؟ وفجأة ألقيت سيجارى فى الموقد وقمت واقفاً ولما أهتد لأمر . وأعملت فكرى قليلاً : آه ! إن لدى ثوباً تنكريًّا ذهبت به مرة إلى إحدى حفلات الكرنفال عند ما كنت عزباً . كان ثوب «دون إسبانى» من المخمل الأسود من عهد فيليب الرابع . وقد كان يحق زيًّا جميلاً اقتبس من صورة وأحكم صنعه . وقد كنت أعجب بنفسى أى إعجاب وأنا أرتديه . وذهبت إلى غرفتى التى جعلت منها « استديو » وفى إحدى الخزائن ألفيت الثوب وقناعه

كان الوقت مبكراً . لماذا إذن لا أرتديه وأذهب إلى الكرنفال ؟ لقد استقلت زوجى المركبة ، بيد أنه بجوارنا اصطبل للعربات . ثم استدعيت الخادم وأرسلته فى طلب عربة

وكان مكان الحفلة زخر بالناس ، رجالاً ونساء حين دلفت إليه . ولكن لحسن الحظ وقع بصرى لأول وهلة على زوجى بريها ، ومروحتها ، وشرائط الحرير المتدلية من قناعها على فمها . عرفتها دون صعوبة فاتخذت سبيلى إليها قدماً . بيد أنى تنبهت حينما اقتربت منها إلى أنها سوف لا تعرفنى بزى هذا إذ لم ترنى فيه أبداً . بل ربما لا تعلم عنه شيئاً . على أية حال لم أستطع أن أرتدّ ، وقد رأتنى أمشى إليها . وقد أدركتْ أنى أقصدها فلم تعترض ، ولم تشح بوجهها أوه ! أيمكن أن تسمح لرجل غريب أن يحادثها ، أو حتى تشجعه على الدنو منها ؟ وساورتنى الريب والشكوك . فأزمعت لأبلونّ إخلاصها ووفاءها . وبدون أن أهتم باللياقة والتقاليد ، قلت لها فى رقة :

— يخيل إلىّ أنك فى انتظارى ، هلا أجبت بنعم ؟

— حسن ! إنى فى انتظار متعة ولهو .

قالت ذلك فى لهجة رقيقة هى أيضاً كأنما آنت مرماها من هذا التطفل البغيض إذ كان فى وقوفها هكذا وحيدة شىء من العرض والإغراء

ورانت على عينى غشاوة ، فلم أر ولم أسمع من الحفل شيئاً ، ولكنى تمالكت نفسى . وبدأت الموسيقى تعزف ألحانها الطرية الحنون فسألتها أن تمنحنى هذه الرقصة فقالت وهى تهنى بسمة مضيئة:

— كم أسر بذلك !

ثم تناولت ذراعى ، وقادتنى إلى حلبة الرقص ، وأنا ذاهل مأخوذ . لا ريب أنها غامرت قبلى مع كثيرين . ولكن هل يتأتى لقناع على وجهى أن يسدل على شخصيتى كل هذا التستر ؟

كانت فى الرقص بارعة كأنما خلقت لترقص .

وعند ما كفت الموسيقى عن العزف طلبت إلىّ بعض المرطبات وأرتنى الطريق إلى المقصف . ولما أن نالت منها كفايتها — وقد كانت كما كبيراً — تأبطت ذراعى ، وراحت تدور بى فى المكان . كان يبدو أنها تعرف منه الداخل والمخارج ، وتلم بكل غرفة فيه . وقد أدهشنى ذلك كثيراً ، إذ كنت أعلم أنها لم تزر هذا المكان من قبل ، وقد سألتها فى ذلك فأجابت :

— أحضر هنا كثيراً ؟ إنى أحضر عند ما يحلو لى .

وهل تُعلمين زوجك ؟

فتعجبت قائلة :

— أوه ! زوجى ؟ ومن أدراك أنى ذات بعل ؟

— إن حسناء مثلك ، ولها ظرفك ، وسحرك لا يمكن أن تفلت من قيود الزواج .

— وأى فرق بين العشاق والأزواج ؟ أليس من الجنون أن تتزوج المرأة وفى مكنتها أن تلم حولها العشاق المعاميد ؟

وشدت بيدها على ذراعى ، ثم رفعت إلى من تحت قناعها عينين تشعان فتنة وإغراء ... وعجبت ، أهذه المرأة زوجى ؟ أم هى غانية قارحة تبحث عن القوت من هذا السبيل ؟ كلا ، لا أعتقد . وحملت نفسى على الظن بأن ذلك الأسلوب فى الحديث وتلك العواطف الحارة الجامحة التى تبديها زوجى ، إنْ هى إلا من مستلزمات الكرنفال ، تحت ستار الأزياء الغريبة والأثواب الشاذة ... ولكن المرأة لا تتقن ذلك الضرب من الغزل إلا عن اختبار وتجربة ، وها قد اعترفت أنها تغشى المكان كثيراً ، مما يبدو لى أنه تصنع منها وتمثيل أنْ لم ألحظ عليها غشيان

هذه الحفلات أبداً . ألم تتمسك بالذهاب إلى الكرنفال بحجة أنها لم تر حفلاً له من قبل ؟ وإنى أقرر لثالث مرة أنى كنت مجنوناً إذ تركتها تذهب وحدها. وإنى وإن كنت أعلم عنها الرعونة والطيش إلا أنه لم يدر بخلدى قط أنها مستهترة قارحة ليس فى عينيها ملح . كنت أعتقد أنها أمينة على عهدى حافظة لشرفى فى كل مكان تغشاه ، وكل حفل تحضره ، ولكنى عرفت هذه الليلة ما أنطوت عليه نفسها الخبيثة الآثمة

ولا مرية أن أصدقائى قد عرفوها أجمعين وأشفقوا علىّ من تبذلها واستهتارها . كانت صدمة قاسية . كنت مشتت الذهن عازب البال طوال الوقت . كنت أتهمها بالخيانة والغدر حيناً ، ثم ألتمس لها المعاذير وأبعد عنى شبح اتهامها حيناً آخر . كانت كل القرائن ضدها . بيد أنى لم أستطع أن أتحرر من حبى لها واحترامى إياها فى مدى لحظات قصار . ومع كل ، فماذا صنعت لتستحق أن أؤاخذها وأرميها بالغدر والخيانة . حقاً لقد انبعت فى الحديث سبيلاً ملتوياً مبتذلاً ، ولكنى لم أوغل معها فيه ، ولو أوغلتُ لأبدت ولا ريب استياءها واستنكارها . أتراها تفعل ؟

وكانت يدها مستقرة على ذراعى . فترددت قليلاً ثم أخذتها وضغطت عليها ، فضحكت لشرود ذهنى ثم بادلتنى الضغط على يدى وقالت :

— ها قد صحوت أيها الدون العبوس . إنك بارد العاطفة ، حليف الجهامة والكآبة . ألا ترانى أبعث الحياة والشعر ، وأنفث الحب والسحر؟ وسوف أبعث كل أولئك فيك

فغلى الدم فى عروق لهذه الكلمات . ومضى وقت ليس بقصير قبل أن أملك زمام نفسى . لقد أترع اليأس قلبى ، وتحطمت الآمال فى فؤادى . وددت لو أنتحى ركناً مهملاً وأبكى كطفل صغير . وقد ران علىّ لا غضبٌ وثورة ، بل حزن وأسى فليس ثمة غضب حين ينعدم الأمل . كنت كالمقامر الذى يلقى بآخر درهم معه ، وَطَّنْتُ النفس أن أوغل فى ذلك الغزل فأعطيها فرصة أخرى، قلت :

— لقد سبانى سحرك . وأصبانى جمالك ودلُّك الأمر الذى لا أطيق معه فراقك وهذا الزحام يرهقنى فهلمى نغادر المكان . إن العربة فى انتظارى . هلا أتيت معى ؟

فقالت ضاحكة كأنما تحدث نفسها :

— وعلام الرفض وهو عصبى المزاج ؟ والآن . هذا حسن . صدقنى أيها « الدون » الكئيب . ينبئ وجهك أنك لم تتعود أن تجيبك امرأة بلفظة «لا»

— وله ! ... حسن جداً ؟

— إن مزاجك العصبى يدل على توقد عاطفتك واضطرامها ، فمالى أراك جامداً بارداً ؟ الحق أنى لا أهضم هذا البرود الذى تشتمل به

— إذن فعلى أن أبعث فيك السرور والبهجة أما وقد أحسست ذلك فسأبذل كل ما فى وسعى . هلا أتيت معى ؟

فضحكتْ ثانية ... يالله ! هل يدل ذلك منها على الخضوع والاستسلام ؟ وقدتها إلى مخرج المكان رغبة الشاب المفتون فلم تتمنع . بل قالت إنى نافد الصبر . وقد كنت حقاً نافد الصبر. كانت كل دقيقة تمر علىّ كأنها ساعة مترعة بالألم والعذاب إلى أن انتهت المهزلة . ولم يكن بوسعى أن أعجل بإنهائها ،

فقد كان الأمر جد خطير . وكان لا مندوحة عن الذهاب بها إلى البيت . وتسللت إلى الخارج بنفسى أبحث عن المركبة ، إذ خشيت أن يعلن اسمى أمامها وأمرت الحوذي بالعودة إلى البيت بينا كنت أساعدها على الركوب .

ولشد ما خشيت أن تنتبه إلى حقيقتى فى ذلك الحفل العام . وكأنما مر دهر طويل على بدء تحرك العربة فى طريق الرجعة إلى البيت .

ابتعدنا عن جلبة الحفل وضجيجه ولكنى ظللت صامتاً بضع دقائق حتى بدأت تمازحنى كرة أخرى حول وجوى وا كتئابى ، وارتمت على بجسدها ؛ ولست أدرى أ كان ذلك لاهتزاز المركبة أم عن فجور منها وفسق . على كل حال ، فقد طوقت خصرها بذراعى فلم تعترض ، بل سألتنى وقد اقتربنا من طيتنا :

-- أين تقيم ؟ إن هذه الشوارع جد متشابهة ولا أستطيع بحال أن أعرف أين نحن الآن .

— على أية حال لقد وصلنا .

ووقفت المركبة فساعدتها على النزول ثم فتحت الباب الخارجى بمفتاحى ، ودلفنا إلى الردهة حيث كان الضوء خافتاً ضئيلاً . فأمسكت بيدها وقدتها إلى غرفة الاستقبال ، وكان الظلام يطمئن فى جو الحجرة ، بيد أنى بددته بأن أشعلت السراج ، ثم واجهتها ، فرأيتها تضحك عالياً ، ولكنها بدت كأنها لم تعرف أين هى !

قلت بلهجة شديدة :

— الآن فلترفع اللثام يا سيدتى

وما ترددت ، بل أماطت لثامها ونضت عنها ثوب الدومينو .

فشهقتُ شهقة حادة وجحظت عيناى حتى كادتا تقفزان من محجريهما .

ثم سقطت على أحد المقاعد . كانت المرأة التى أمامى غريبة ، مخلوقة بشعر فاحم جعد وعينين سوداوين وأهداب مصبوغة ووجه ملطخ . امرأة من النوع الذى لا يشرف المرء مسايرتها فى أى مكان ، أو مصاحبتها إلى أى حفل . ووددت لو أجثو عند قدميها فأقبل طرف ثوبها . هكذا كان شعورى حينما تحررتُ من الوساوس والظنون ، وتمطل ذهنى فلم أستطع شيئاً سوى التحديق فى وجهها مبتسما .

وغرتها هيئتى إذ حسبت أن ذلك منى إعجاب صامت بعث فىّ الذهول من جمالها وحسنها ، فوقفتْ صامتة فى هيئة مسرحية تمثل الخجل المصطنع والدلّ الزائف ؛ وظلت الحال كذلك حتى ثُبتُ إلى نفسى . كان أول ما خطر ببالى هو أن أتخلص منها ؛ ولكن كيف أفعل دون أن أخدش كرامتها وأجرح عزتها ؟ كان عقلى يعمل بسرعة فى انتحال عذر مقبول . ولكن قبل أن أهتدى إلى شىء ، سمعت صوت عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت المفتاح وهو يدار فى القفل ، ثم حفيف ثوب من حرير ، ثم خطوات خفيفة تصعد السلم .

لقد بكرت زوجى بالعودة كما وعدت . وأقبلت خطواتها نحو غرفة الاستقبال ، وهمت يدها بإدارة مقبض الباب ...

وكف عن الحديث ثم أطل من النافذة . كان القطار قد وقف منذ لحظات دون أن نحس به . قال الرجل فى دهشة :

— « هال ها » لقد بلغت طيتى . وقفز من القطار عندما تحرك ثانية يواصل السفر

ولم أره مطلقاً منذ ذلك الحين . وأحسبنى لن أراه أبداً ، لذلك سأظل طوال حياتى أكدح ذهنى فى تصور ما حدث له عند ما انفتح الباب

محمد عبد الفتاح محمد